

﴿٢٥﴾ ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾: في اليم الذي أحاط بهم، ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾: فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق. وهذا كله بسبب خطيئاتهم التي أتاهم نبيهم [نوح] ينذرهم عنها ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾: ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِبَّارًا﴾: يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَاضِلًا عِبَادِكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ فللهذا استجاب الله له دعوته^(١) فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿٢٨﴾ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾: خصّ المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾؛ أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله^(٢).



تفسير سورة قل أوحى إلي

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول للناس، ﴿أوحى إليّ أنّه استمع نفر من الجن﴾: صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجّة وتتمّ عليهم

(١) في (ب): «لا جرم أنّ الله استجاب دعوته».

(٢) في (ب): «تمّ تفسير سورة نوح عليه السلام».

النعمة ويكونوا منذرين^(١) لقومهم، وأمر [الله] رسوله أن يقصّ نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم. ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: والرُّشْدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرشدُ الناس إلى مصالح دينهم وديناهم، ﴿فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التَّقوى المتضمنة لترك الشرِّ، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضارِّ؛ فإنَّ ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحبَّةٌ قاطعةٌ لمن استنار به واهتدى بهديه، وهذا الإيمانُ النافع المثمر لكلِّ خير، المبنِي على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمزبي والإلف ونحو ذلك؛ فإنه إيمانٌ تقليدي تحت خطر الشُّبهات والعوارض الكثيرة.

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٤﴾ [٢].

﴿٣﴾ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعالت عظمته وتقدَّست أسماؤه، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: فعلموا من جدِّ الله وعظمته ما دلَّهم على بطلان مَنْ يزعم أنَّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنَّ له العظمة والجلال^(٣) في كلِّ صفة كمال، واتَّخَذَ الصاحبة والولد ينافي ذلك؛ لأنَّه يضادُّ كمال الغنى.

﴿٤﴾ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾؛ أي: قولاً جائراً عن الصواب متعدياً للحدِّ، وما حمله على ذلك إلاَّ سفهه وضعف عقله، وإلَّا؛ فلو كان رزينا مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾.

﴿٥﴾ أي: كُنَّا مغترِّين قبل ذلك، غرَّتنا السادة^(٤) والرؤساء من الجنِّ والإنس، فأحسنا بهم الظنَّ، وحسبناهم^(٥) لا يتجرؤون على الكذب على الله؛ فلذلك كُنَّا

(١) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «غزنا القادة...».

(٣) في (ب): «الكمال».

(٤) في (ب): «وظنناهم».

قبل ذلك على طريقهم؛ فالיום إذ بان لنا الحق؛ سلكنا طريقه^(١)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الخلق^(٢) يعارض الهدى.

﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا لِلْإِنْسِ يُوَدُّونَ رِجَالٍ مِّنَ الْإِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجن^(٣) عند المخاوف والأفزع ويعبدونهم، فزاد الإنس الجن رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير وهي الواو ترجع^(٤) إلى «الجن»؛ أي: زاد الجن الإنس ذُعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسك بما هم عليه، فكان الإنسي إذا نزل بوادٍ مخوف؛ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

﴿٧﴾ أي: فلما أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطيغان.

[﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَوجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَكُمُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾]^(٥).

﴿٨ - ٩﴾ ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا﴾: عن الوصول إلى أرجائها والذنوب منها، ﴿وَشُهَابًا﴾: يرمى بها من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا^(٦) الأولى؛ فإننا كنا نتمكّن من الوصول إلى خبر السماء فإننا ﴿كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ﴾: فتلقّف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِثْ لَكُمُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: مرصداً له معدداً لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر؛ فلهدأ قالوا:

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

(١) في (ب): «إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه..».

(٢) في (ب): «من الناس».

(٣) في (ب): «يعبدون الجن ويستعيذون بهم».

(٤) في (ب): «ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن، ضمير الواو».

(٥) الآيات زيادة لا توجد في النسختين. (٦) في (ب): «وهذا بخلاف عادتنا».

﴿١٠﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكره، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريد الله ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً [مع الله].

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [١١].^(١)

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾؛ أي: فرقا متنوعاً وأهواءً متفرقة؛ كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [١٢].

﴿١٢﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله؛ فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [١٣] ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [١٤].^(٢)

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثر في قلوبنا، فأمنا به، ثم ذكروا ما يرغب المؤمن، فقالوا: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: من آمن به إيماناً صادقاً؛ فلا عليه نقص^(٣) ولا أذى يلحقه، وإذا سلّم من الشر؛ حصل له الخير؛ فالإيمان سبب داع إلى [حصول] كل خير وانتفاء كل شر.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [١٥] ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْفَيْنَهُمْ مَاءٌ عَدَاةً ﴿١٦﴾ لَنُقَبِّلَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [١٧].^(٢)

(١) الآية زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: وذلك جزاءً على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾: المثلى، ﴿لأستقيناهم ماءً غدقًا﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنتخبرهم [فيه] ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسئله عذاباً صعداً﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتبعه ويتقذ له، بل لها عنه وغفل^(١)؛ يسئله عذاباً صعداً؛ أي: بليغاً شديداً^(٢).

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ [وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا] ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُحْيِيَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْرٌ يُجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَيْنَا مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾] ﴿٣﴾.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾؛ أي: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾؛ أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه، ﴿يكونون﴾^(٤) عليه لبداً؛ أي: متلبدين متراكمين حرصاً على [سماع] ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم يا أيها الرسول، مبنياً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إنما أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾؛ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذة المشركون من دونه.

(١) في (ب): «بل غفل عنه ولها».

(٢) في (ب): «شديداً بليغاً».

(٤) في (ب): «أن يكونوا».

(٣) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: فَإِنِّي عَبْدٌ لِيَسْ لِي مِنَ الْأَمْرِ وَالتَّصَرُّفِ شَيْءٌ^(١)، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾؛ أَي: لَا أَحَدٌ أَسْتَجِيرُ بِهِ يَنْقُذُنِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا وَلَا يَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ؛ فَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾؛ أَي: مُلْجَأً وَمُنْتَصِرًا.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾؛ أَي: لَيْسَ لِي مَزِيَّةٌ عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ خَصَّنِي بِإِبْلَاغِ رِسَالَاتِهِ وَدَعْوَةِ خَلْقِهِ إِلَيْهِ^(٢)، وَبِذَلِكَ تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: وَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمَعْصِيَةُ الْكُفْرِيَّةُ كَمَا قَيَّدَتْهَا التُّصُوصُ بِالْأَخْرِ الْمَحْكَمَةِ، وَأَمَّا مَجْرَدُ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأُئِمَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

﴿٢٤﴾ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أَي: شَاهَدُوهُ عِيَانًا وَجَزَمُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾: فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ، ﴿مَنْ أضعفُ ناصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾: حِينَ لَا يَنْصِرُهُمْ غَيْرُهُمْ، وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْتَصِرُونَ، وَإِذْ يُخْشَرُونَ فِرَادَى كَمَا خُلِقُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿قُلْ لَهُمْ إِنْ سَأَلُوكَ فَقَالُوا: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟﴾ ﴿إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؛ أَي: غَايَةً طَوِيلَةً؛ فَعَلِمَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾: مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ انْفَرَدَ بِعِلْمِ الضَّمَائِرِ وَالْأَسْرَارِ وَالْغُيُوبِ^(٣).

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾؛ أَي: فَإِنَّهُ يَخْبِرُهُ بِمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسَلَ لَيْسُوا كغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَيْدَهُمُ بِتَأْيِيدٍ مَا أَيْدَهُ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَحَفِظَ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقْرَبَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَزِيدُوا فِيهِ^(٤) أَوْ يَنْقُصُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾؛ أَي: يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.

(١) فِي (ب): «لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَا مِنَ التَّصَرُّفِ شَيْءٌ».

(٢) فِي (ب): «وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ». (٣) فِي (ب): «وَالْغَيْبِ».

(٤) فِي (ب): «أَنْ تَخْبِطَهُمُ الشَّيَاطِينُ وَلَا يَزِيدُوا فِيهِ».

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ليعلم﴾ بذلك ﴿أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وأحاط بما لديهم﴾؛ أي: بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾.

وفي هذه السورة فوائد عديدة^(١):

منها: وجود الجن، وأنهم [مكلفون] مأمورون منهيون مجازون بأعمالهم؛ كما هو صريح في هذه السورة وغيرها.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث^(٢) إلى الجن كما هو مبعوث^(٣) إلى الإنس؛ فإن الله صرف نَفَر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوته والسماء محروسةً بالنجوم، والشياطين قد هربت من^(٤) أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رَجَمَ به أهل الأرض^(٥) رحمةً ما يُقَدَّر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به^(٥) القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وبيّنت حالة الخلق، وأن كلَّ أحدٍ منهم لا يستحقُّ من العبادة مثقالَ ذرّة؛ لأنَّ الرسول محمداً ﷺ إذا كان لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلُّهم كذلك؛ فمن الخطأ والظلم^(٧) اتِّخاذ مَنْ هذا وصفه إلهاً آخر^(٨).

(١) في (ب): «فوائد كثيرة».

(٢) في (ب): «رسول».

(٣) في (ب): «عن».

(٤) في (ب): «رحم به الأرض وأهلها».

(٥) في (ب): «له».

(٦) في (ب): «شدة حرص الجن لاستماع الرسول».

(٧) في (ب): «إلهاً مع الله».

(٨) في (ب): «والغلط».

ومنها: أن علوم الغيوب^(١) قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحد من الخلق؛ إلا من ارتضاه الله واختصه^(٢) بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين^(٣).



تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قِرَّ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَضْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْقُرْآنَ رَتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْرِكَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِطْهُمْ هَبْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١ - ٥﴾ المزمل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه^(٥)، فرأى أمراً لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه^(٦) إلا المرسلون، فاعتراه عند ذلك^(٧) انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني بقاريء»، وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقرائيء». فغظه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ^(٨).

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها! ولهذا

(١) في (ب): «علوم الغيب».

(٢) في (ب): «تم تفسير سورة قل أوحى إلي. والله الحمد».

(٣) في (أ): «تم تفسير سورة قل أوحى إلي. والله الحمد».

(٤) في (ب): «والمهلهم قليلاً». وفي (ب): ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».

(٦) في (ب): «له».

(٧) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».

(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.